من المسؤول عن الاحترابات العربية الداخلية؟

الخليج 27-3-2008

د. يوسف مكي

حين نقول إن هناك استهدافاً خارجياً واضحاً للأمن والاستقرار في الوطن العربي، يخرج علينا نفر من "المستنيرين" رافضين ذلك، مؤكدين أن هذا القول هو جزء من نظرية المؤامرة، المعششة في الفكر الجمعي للأمة، والمعبرة عن العجز العربي الشامل في مواجهة الاستحقاقات الخاصة، من بناء وتنمية وتدشين لمؤسسات الدولة الحديثة، بهياكلها التي أقرّتها شرعة الأمم، وأنه أيضا تعبير عن الهروب من التماهي مع خصوصية العصر الكوني الذي نعيش فيه. إنه إذن والحالة هذه، عملية تعويض يعبر عنه بحيلة دفاعية، نتجنب من خلالها مواصلة جلد الذات، ونقوم بترحيل أخطائنا إلى جهة الآخر، فنصبح نحن دائما على حق ومبرئين، ويصبح غيرنا جناة وخطائين، ويصير الاحتراب الداخلي، دائما وأبدا سلعة معلبة، مستوردة من الخارج.

ما يجري الآن من انقسام في النظام العربي الرسمي، يضاف له اتساع حالة الاحتراب الداخلي في عدد من الأقطار العربية، لتصل حد التحريض على الفتنة شيء فظيع ومروع. إن هذه الهستيريا المتوحشة، التي بلغت حد استخدام السلاح لقهر الخصم، من فرط لا عقلانيتها تستعصي على الفهم. وتعيد طرح أسئلة ملحة، يختزلها سؤال مركزي واحد وجامع: من المسؤول عن حالة الانهيار الشاملة التي يشهدها وطننا العربي؟ هل هي من صنعنا نحن؟ أو أن بالإمكان اختزالها وإحالتها للخارج لتصبح جزءا من نظرية المؤامرة التي افتتحنا بها هذا الحديث؟

كيف يمكن لإخوة جمعتهم رابطة الكفاح طويلا ضد المحتل الصهيوني، والذين شهد العالم بأسره ثباتهم الأسطوري وإصرارهم على التمسك بحقهم في الحرية وتقرير المصير، أن ينالوا من بعضهم، بدلا من ادخار طاقاتهم لمواجهة الغاصب الذي يحتل أرضهم، ويحاصر مدنهم، ويحرمهم من لقمة العيش. كيف لهم أن يتصارعوا على سلطة ومكاسب لم تنجز بعد، بدلا من أن يتوجهوا نحو استكمال برنامجهم السياسي، لانتزاع حقوقهم وتثبيت هويتهم الوطنية؟

وكيف نفسر حملات القتل اليومية في العراق، التي بلغت مستوى القتل على الهوية، منذ الاحتلال الأمريكي لعاصمة الرشيد. إن هذا العبث الجنوني، صار يستهدف القتل لمجرد القتل، والفوضى لذاتها، ولا يميز بين مناصر لمحتل أو مقاوم، ولا بين انتماء وآخر. تصبح حالات الخطف، والقتل العمد وجثث القتلى المتناثرة هنا وهناك، حالة مألوفة، لا تميز بين صديق وعدو. وتحاول أن تفهم، مجرد أن تفهم، وتتوه في زحمة الفوضى والمجازر اليومية، وحالات الفقر والجوع والانهيار المجتمعي كل أسئلتك.

لبنان هو الآخر، يعيش فراغا دستوريا، مضى عليه عدة أشهر، بعد انتهاء ولاية رئيس الجمهورية إميل لحود. وقد كان للاحتكام السلمي إلى الشارع، كلفته، على صعيد تعطيل أمور الدولة وحياة الناس، واستمرار الأمن والاستقرار، وكان له أيضا ضحايا وشهداء. والمشهد بأسره مرشح لمزيد من الانهيارات السياسية، بعد تصاعد الاتهامات المتبادلة، بين الأطراف المتصارعة، التي خرجت عن حدود اللباقة الأدبية. ويبدو انعقاد مؤتمر القمة العربي في دمشق بعد أيام قليلة فسحة لأمل جديد للخروج بحل مقبول لهذه الأزمة.

وهناك احترابات داخلية في الجزائر، ولا يلوح في الأفق ما ينبئ باقتراب التوصل إلى حل يضمن حقن دماء الجزائريين. وفي السودان، تستمر الأزمة في جنوبه وغربه، حيث المشكلة المزمنة مع الحركة الانفصالية في الجنوب، والمشكلة التي مضى عليها ما يقرب من الثلاثة أعوام في الجانب الغربي، بمنطقة دارفور بين الجنجويد والسكان المحليين والحكومة. وفي الصومال، يحتدم الصراع بين المحاكم الإسلامية والحكومة المدنية.

تستمع إلى نشرات الأخبار، فلا يصدق عقلك أو قلبك ما يجري، في هذا الوطن العربي الكبير، الممتد من البحر إلى البحر.

كيف يمكننا فهم الصراعات الجارية بين الأنظمة العربية، وما أسباب هذه الفوضى التي تعم الآن عددا كبيرا من أقطارنا، والتي لن تكون نتائجها، إذا ما تواصلت سوى المزيد من التشظي والتفتيت؟ من جديد، من هو المسؤول عن حالة التداعي؟ هل نحمل القوى الكبرى، مسؤولية ما يجري ونزيح عن كاهلنا عبء تحمل أوزارها؟ أم نواصل الاستمرار في جلد الذات، ونعتبر أنفسنا نقطة البداية والنهاية، وأننا وحدنا المسؤولون عما يحيق بنا من أزمات ونكبات؟.

الجواب عن ذلك، في حالة اختيارنا لأحد الاحتمالين، سيبدو ساذجا ومسطحا. صحيح أن أمتنا تعرضت لهجمة استعمارية شرسة، منذ بداية القرن العشرين، في وقت لم تكن مهيأة ماديا وموضوعيا لخوض غمار مواجهة تلك الهجمة. لقد عاشت الأمة ظروفا قاسية، إثر هجمة التتار، وغطت في نوم عميق، تواصل لقرون طويلة. ثم واجهت هيمنة سلطان الاستبداد العثماني. وحين بدأت الأمة في تشكيل حلمها ومشروعها، ووجهت بهجمة استعمار فتي، كانت مشاريعه تقتضي تجزئة المجزأ وتفتيت المفتت، وقد عبرت اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور بدقة عن تلك النوايا.. وتداعى الحلم، وفشل المشروع النهضوي الأول.

وعندما اضطر الاستعمار التقليدي، ضمن ظروف دولية، استجدت بعد الحرب العالمية الثانية، لشد رحاله، ومنح صكوك الاستقلال لعدد من بلداننا العربية، كان التشكيل السياسي والديموغرافي والجغرافي الذي تركه مشوها وزائفا، حمل في أحشائه قنابل موقوتة. تم عزل بعض المناطق، عن عمقها التاريخي والاستراتيجي، وجرى التقسيم بالضد من الجغرافيا والتاريخ، وإرادة أصحاب الأرض. عمل قلم الرصاص والمسطرة عملهما في ترسيم الحدود، في معظم البلدان العربية وفقا لمصالح المستعمر القديم، وليس ضمن منطق التكوين التاريخي. وكانت النتائج مناطق محايدة، وأقاليم متنازعا عليها، وصراعات إثنية، وقبلية على المراعي والحقول، وحديثاً على آبار النفط ومناجم الحديد، ومصادر الثروة الأخرى. وكانت المشاكل مضاعفة في أطراف الأمة، وحدودها في كل الاتجاهات.

فشل الحلم العربي، وغدت الهوية القومية، موضع شبهة وشك. وأصبح للدولة القطرية هويتها الخاصة، علمها ونشيدها وفلكلورها، ومشروعها. وبالقدر الذي تعزز فيه الانتماء للقطر بدلا من الأمة، أخذت التركة الاستعمارية القديمة تطل من جديد، في شكل صراعات داخلية، وصراعات على الحدود والثروة، لتؤدي دورها في متتاليات لا يبدو أن لها نهاية، مساهمة في فصم عرى وأواصر القربى بين أبناء الوطن الواحد.

وشاءت حقائق الجغرافيا، أن تكون منطقتنا، بمعابرها الاستراتيجية، وثرواتها النفطية من أهم مراكز الاستقطاب الدولي، فكان أن توسعت مناطق الجاذبية في هذا الصراع لتنتقل من حوض البحر الأبيض المتوسط والشمال الإفريقي، لتشمل بشكل مركز منطقة الخليج، ولتشهد هذه المنطقة في أقل من ربع قرن ثلاث حروب رئيسة، واضعة أمن المنطقة بأسرها في مهب الريح.

هل نحمل القوى الكبرى، وزر مشاكلنا، ونعفي أنفسنا من المسؤولية؟ الجواب بالطبع لا يكون إلا بالنفي. فنحن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأت رحلتنا الجديدة للبحث عن موطئ قدم، وعن مكان يليق بنا في عالم لا يعترف إلا بالقوة، بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والعسكرية. وتوصلنا على صعيد علاقاتنا العربية، إلى معاهدات ومواثيق، وكانت هناك خيمة، هي جامعة الدول العربية، قبلنا بها جميعا، وارتضينا أن نحتمي بظلالها، لكن مواثيقها بقيت مجرد حبر على ورق. قمنا بطعنها عدة مرات، إما بالفعل والتماهي مع سياسة قوى الهيمنة، أو بالصمت العاجز، وها نحن ندفع الثمن باهظا، جراء فشلنا وعجزنا. وفشلنا أيضا في تحقيق عقد اجتماعي داخل أوطاننا، فكان الاحتراب والفتنة، والفوضى، والبلقنة بديلا عن وحدة الأمة. هل من مخرج لهذا الواقع المتردي؟ وهل من أمل لصياغة مشروع يخرجنا من عنق الزجاجة؟. ويحقق تماهي مفهوم الوطن والأمة. تلك أسئلة ملحة، لا ينبغي أن تظل، إلى مالا نهاية، معلقة دون جواب.

* كاتب أكاديمي سعودي متخصص

في السياسة المقارنة